وبعد اشر موانستهم، ويستريح اليهم بجواه، ويبوح اليهم بسره ونجواه، الى ان شفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم
وانفرج لهم مبهم انغلاقهم، وبقي المعتمد يشتكي من ضيق الكبل ويبكي بدمع كالوبل، فدخلوا عليه مودعين، ومن
بثه متوجعين، فقال • اما لانسكاب الدمع في الخد راحة • لقد آن ان يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلي • بما منه قد عافاكم الصمد الفرد • تخلصتم من سجن اغمات والتوت
علي قيود لم يحن فكها بعد • من الدهم اما خلقها فاساود • تلوى واما الايد والبطش فالاسد
فهنيتم النعمى ودامت لكم بكم • سعادتكم ان كان قد خانني سعد • خرجتم جماعات وخلفت واحدا
ولله في امري وامركم الحمد • ومر عليه في موضع اعتقاله سرب قطا لم يعلق لها جناح، ولا تعلق بها
من الايام جناح، ولا عاقها عن افراخها الاشراك، ولا اعوزها البشام ولا الاراك، وهي تمرح في الجو، وتسرح
في مواقع النوء، فتنكد بما هو فيه من الوثاق، وما دونه اجفنه من الرقباء والاغلاق، وما يقاسيه من كبل، ويعانيه
من وجوم وخبل، وفكر في بناته وافتقارهن الى النعيم عهدنه، وحبور حضرنه وشهدنه، فقال
بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي • سوارح لا سجن يعوق ولا كبل • ولم تك والله المعيد حسادة
ولكن حنينا ان شكلي لها شكل • فاسرح لا شملي صديع ولا الحشا • وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكل
هنيئا لها ان لم يفرق جميعها • ولا ذاق منها البعد عن اهلها اهل • وان لم تبت مثلي تطير قلوبها
اذا اهتز باب السجن او صلصل القفل • وما ذاك مما يعتريني وانما • وصفت الذي في جبلة الخلق من قبل
لنفسي الى لقيا الحمام تشوف • سواي يحب العيش في ساقه كبل • الا عصم الله القطا في فراخها
فان فراخي خانها الماء والظل • وفي هذه الحالة زاره الاديب ابو بكر بن اللبانة وهو احد شعراء دولته
المرتضعين درها، المنتجمين درها، وكان المعتمد رحمه الله يميزه بالشفوف والاحسان، ويجوزه في فرسان هذا
الشان، فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت بساقيه عض الاسود، والتوت عليه التواء الاساود السود، وهو
لا يطيق اعمال قدم، ولا يريق دمعا الا ممزوجا بدم، بعد ما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق
عليه الالوية، وتشرق منه الاندية، وتكف الامطار من راحته، وتشرق الاقدار بحلول ساحته، ويرتاع الدهر
من اوامره ونواهيه، ويقصر النسر ان يفاريه او يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الاكباد، ويثير فيها لوعة
الحارث بن عباد، ابدع من اناشيد معبد، واصدع للكبد من مراثي اربد، او بكاء ذي الرمة بالمربد، سلك
فيها الاختصار طريقا لاحبا، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحبا، فمن ذلك قوله
انفض يديك من الدنيا وساكنها • فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا • وقل لعالمها السفلي قد كتمت
سريرة العالم العلوي اغمات • طوت مظلتها لا بل مذلتها • من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والباس انصله • هندية وعطاياه هنيدات • رماه من حيث لم تستره سابغة
دهر مصيباته نبل مصيبات • انكرت الا التواءات القيود به • وكيف تنكر في الروضات حيات
غلطت بين همايين عقدن له • وبينها فاذا الانواع اشتات • وقلت هن ذؤابات فلم عكست
من رأسه نحو رجليه الذؤابات • حسبتها من قناه او اعنته • اذ انها لثقاف المجد آلات
دروه ليثا فخافوا منه عادية • عذرتهم فلعدو الليث عادات • من كان يفرح عنه بعض اونة
قامت بدعوته حتى الجمادات • بحر محيط عهدناه تجي له • كنقطة الدارة السبع المحيطات
لهفي على آل عباد فانهم • اهلة ما لها في الافق هالات • راح الحيا وغدا منهم بمنزلة
كانت لنا بكر فيها وروحات • ارض كان على اقطارها سرجا • قد اوقدتهن بالاذهان انبات
وفوق شاطئ واديها رياض ربى • قد ظللتها من الانشام دوحات • كان واديها سلك بلبتها
وغاية الحسن اسلاك ولبات • نهر شربت بعبريه على صور • كانت لها في قبيل الراح راحات
وبالغروسات لا جفت منابتها • من النعيم غروسات جنيات • ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات
وخلده يتردد بين النكبات والعثرات، ونفسه تنقسم بين الاشجان والحسرات، الى ان شفته منيته
وجاءته بها امنيته، فدفن باغمات، واريح من تلك الازمات، وعطلت المآثر من حلاها، واقفرت المنابر
من علاها، ورفعت مكارم الاخلاق، وكسدت نفايس الاعلاق، وصار امره عبرة في عصره، وصاب ايدي
عبرة في مصره، وبعد ايام وافى ابو بحر بن عبد الصمد شاعره المتصل به المتوصل الى المنى بسببه، فلما كان يوم
العيد، وانتشر الناس ضحى، وظهر كل متوار وضحى، قام على قبره عند فراغهم من مصلاهم، واختيالهم بزينتهم وحلاهم
وقال بعد انعطافه نحوه والتزمه، وحن على تربه ولثمه • ملك الملوك اسامع فانادي
ام قد عدتك عن السماع عوادي • لما خلت منك القصور فلم تكن • فيها كما قد كنت في الاعياد
قبلت في هذا الثرى لك خاضعا • وتخذت قبرك موضع الانشاد • وهي قصيدة اطال انشادها، وبني
بها اللواعج وشادها، فانحشر الناس اليه واحتفلوا، وبكوا لبكائه واعولوا، واقاموا اكثر نهارهم مطيفين
به طواف الحجيج، مديمين للبكاء والعجيج، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم، واقرحوا ماقيهم بفيض جفونهم
وهذه نهاية كل عيش، وغاية كل ملك وجيش، والايام لا تدع حيا، ولا تالوا كل نشر طيا، تطرق رزاياها
كل سمع، وتفرق مناياها كل جمع، وتصمي كل ذي امر ونهي، وترمي كل مشيد بوهي، ومن قبله ما طوت النعمان
ابن الشقيقة، ولوت مجازه في تلك الحقيقة، انتهى ما قصدنا جلبه من كلام الفتح مما يدخل في اخبار
المعتمد بن عباد المناسبة لما نحن فيه، وكلام الفتح كله الغاية، وليس الخبر كالعيان، ولذا قال بعض من عرف به انه
اراد ان يفضح الشعراء الذين ذكرهم في كتبه بنثره سامحه الله تعالى، واخبار المعتمد رحمه الله تعالى تحتمل مجلدات

واثاره

واثاره الى الآن بالغرب مخلدات، وكان من النادر الغريب قولهم في الدعاء للصلاة على جنازته الصلاة على الغريب
بعد اتساع ملكه، وانتظام سلكه، وحكمه على اشبيلية واخواتها، وقرطبة وزهرائها، وهكذا شان الدنيا في
تدريسها بحو ندبتها واغرابها، وقد توجه لسان الدين الوزير بن الخطيب الى اغمات لزيارة قبر المعتمد
رحمه الله تعالى، ورأى ذلك من المهمات، وانشد على قبره ابياته الشهيرة التي ذكرتها في جملة نظمه الذي هو ارق
من النسيم، وابهج من المحيا الوسيم، قلت وقد زرت انا قبر المعتمد والرميكية ام اولاده رحمهما الله تعالى حين
كنت بمراكش المحروسة بالله عام عشرة والف، وعمي علي امر القبر المذكور وسالت عنه من يظن معرفته له حتى هداني
اليه شيخ طعن في السن وقال لي هذا قبر ملك من ملوك الاندلس وقبر حظيته التي كان قلبه يحبها حبا فائقا مطيقين
وانهما في ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله تعالى بالابيات، وحصلت لي في ذلك المحل خشية وادكار، وذهبت
بي الافكار في ضروب الاعتبار، فسبحان من يوتي ملكه من يشاء لا اله غيره وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين
وما احسن قول الوزير ابن عبدون في مطلع رائيته الشهيرة • الدهر يفجع بعد العين بالاثر
فما البكاء على الاشباح والصور • وهو القائل • يا نائم الليل في فكر الشباب افق
نعمت شيبك في افق النهى بادي • عضت عنانك ايدي الدهر باحثة • حملا بجهل واصلاحا بافساد
واسلمت للمنايا آل مسلمة • وعبدت للرزايا آل عباد • لقد هوت منك خانتها قوادمها
بكوكب في سماء المجد وقاد • ومنها وما لك كان يحيى شول قرطبة • استغفر الله لا بل شول بغداد
شق العلوم نطاقا والعلى زهرا • فبين ما بين رواد ووراد • وان هذه القصيدة في مدحهم
من قصيدة الغض منهم وهي قول ابي الحسن جعفر بن ابراهيم بن الحاج اللورقي • تعز عن الدنيا ومعروف اهلها
اذا عدم المعروف في آل عباد • حللت بهم ضيفا ثلاثة اشهر • بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد
وهذا يدلك على ان الشعراء لم يسلم من لسانهم من احسن فضلا عمن اساء من العظماء والرؤساء، وما امدح
قول ابي محمد بن غانم فيهم • ومن الغرائب غروب شمس في الثرى • وضياؤها باق على الآفاق
وقال في المطمح في حق بني عباد واوليتهم ما صورته الوزير ابو القاسم محمد بن عباد هذه بقية منتماها في لخم
ومرتماها الى بحر ضخم، وجدهم المنذر بن ماء السماء، ومطلعهم من جو تلك السما، وبنو عباد ملوك انس بهم الدهر
وتنفس منهم عن اعبق الزهر، وعمروا ربع الملك، وامروا بالحياة والهلك، ومعتضدهم احد من اقام وانعد
وبنوا كاصل الادهاب واقعد، والمرتمي من عرشته، وافترس من مكايد فرسته، وزاحم بعود وهد
كل طود، واخمل كل ذي زي وشاره، وختل بوحي واشاره، ومعتمدهم كان اجود الاملاك، واحد نيرات تلك الافلاك
وهو القائل وقد شغل عن منادمته، خواص دولته، بمنادمة العقايل • لقد حننت الى ما اعتدت من كرم
حنين ارض الى مستأخر المطر • فهات خلقا يرضي السماح بها • محفوفة في اكف الشرب بالبدر
وهو القائل وقد جنح في طريقه الى فريقه • اداري النوى كم طال فيك تلذذي
وكم عقتني عن دار اهيف اغيد • حلفت به لو قد تعرض دونه • كماة الاعادي في النسيج المسرد
لجردت للضرب المهند فانقضى • مرادي وعزم مثل حد المهند • والقاضي ابو القاسم هو جدهم
وبه سفر مجدهم، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر، واختصهم منه بالحظ الوافر، فانه اخذ الرياسة من ايدي
جبابره، واحتمى من ظلالها اعيان اكابره، عندما اناخت بها اطماعهم، واصاخت اليها اسماعهم، وامتدت اليها
من مستحقيها اليد، واتلعوا اجيادا زانها الجيد، ونفر عليها نفرا حتى هجاءات العبدي، وتصدى الهامي
يعيد ويبدي، فانتقد سنامها وغاربها، وابعد عنها محبيها واعاربها، وفاز بالملك باوفر حصه، وقدمت سمته
بمصعة مختصة، فلم يجد رسم القضا، ولم يتسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء، وما زال يحمي حوزته
ويجلو عزته، حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الآجام، وانتقل الملك الى ابنه المعتضد، وحل منه في روض
نمق له ونضد، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه، وتسمى بالمعتضد بالله، وارتمى الى ابعد غايات الجود بما اناله واولاه
ولا بطش في اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل، وتصور اشاء ذلك العل والنهل، وما زال للارواح قابضا
وللوثوب عليها رابضا، يختطف اعداءه اختطاف الطاير من الوكر، ويستصفي منهم بالدهاء والمكر، الى ان
افضى الملك الى ابنه المعتمد، فاكتحل منه طرف الرمد، واحمد مجده، وتقلد منه ابي باس ونجدة، وندى
بز لحق منه وجرى برسنه، واقام في الملك ثلاثا وعشرين سنة، لم تعدم منه فيها حسنة، ولا سيرة مستحسنة
الى ان غلب على سلطانه، وذهب به من اوطانه، فنقل الى حيث اعتقل، فاقام كذلك الى ان مات، وواراه
تربة اغمات، وكان للقاضي جد ادب غض، ومذهب مبيض، ونظم بتجلة كالجين، يبعثه اعطر من
الرياحين، فمن ذلك قوله يصف النيلوفر • يا ناظرين لذا النيلوفر البهج
وطيب مخبره في الفوح والارج • كانه جام در في تلألؤه • قد احكموا وسطه فصا من السبج
انتهى المقصود منه، وهو اعني الفتح يشيد قصور الشرف اذا ابلج، ويهدم معاقلها اذا هجا وقدح، ومن ذلك
قوله في المطمح في حق الاديب ابي جعفر بن البني رافع راية التركيض، وصاحب آية التعريض والتصريح، اقام
زمانه، واظهر بدايعه اذ انظم ادرى بالعقود، واتى باحسن من رقم البرود، وكان الف غلمان، وحليف
كفر لا ايمان، ما انطق متشرعا، ولا رمق متورعا، ولا اعتقد حشرا، ولا صدق بعثا ولا نشرا، تنسك مجونا وفتكا
وتمسك باسم التقي وقدم هتكه هتكا، لا يبالي كيف ذهب، ولا بما تمذهب، وكانت له اهاجي جرع بها
صابا، وودع منها اوصابا، وقد اثبت له ما يرتشف ريقا، ويشرب تحقيقا، فمن ذلك قوله يتغزل
من البشرة فاتن يختال في • حلل الجمال اذا بدا وحليه • لو ثممت في وضح النهار شعاعها